

## قراءة في استشراق ما بين الحربين العالميتين

أ.د. يوسف مكي

رئيس تحرير مجلة التجديد العربي

المملكة العربية السعودية

### تمهيد:

تهتم هذه الورقة بتقديم رصد واستقصاء سريعين لبعض مظاهر الحركة الإستشراقية في الوطن العربي، في الفترة ما بين الحربين العالميتين. وقد اختيرت هذه الحقبة، لعدة أسباب، يأتي في مقدمتها أن الخارطة السياسية للوطن العربي، وبشكل خاص الجزء الشرقي منه، قد أعيدت صياغة تركيبها، لصالح المشروع الإستعماري التقليدي، الذي عبرت عنه بشكل دراماتيكي، معاهدة سايكس بيكو، التي جرى بموجبها تقسيم مشرق الوطن العربي بين الإستعمارين، الفرنسي والبريطاني. كما عبرت عنه المعاهدات والإتفاقيات التي فرضها البريطانيون على مشيخات وإمارات الخليج العربي، والتي وضعت عند مطلع القرن العشرين، معظم مناطق الخليج والجزيرة العربية تحت الحماية البريطانية. لقد ضمت الطلائع الأولى لقوات المحتلين في معظم الأقطار والمناطق العربية مجموعات متخصصة من المستشارين والباحثين، كان بينهم من صار له دورا بارزا في الحركة الإستشراقية. وقد تميز بعضهم بتقل عطائه في مجال الدراسات العلمية والبحث عن الآثار والكشف عن أسرار هذه الأرض. وقد زاجوا بشكل عملي بين الأدوار السياسية والإستخباراتية المنوطة بهم وبين كونهم علماء يملكون آليات وتقنيات المعرفة

بونة للبحوث والدراسات العدد : الثالث جمادى الأولى 1426 هـ / يونيو 2005 م  
والبحث، فكانت أحد نتائج أعمالهم إثراء المكتبة العالمية بكثير من الدراسات العلمية  
المفيدة والنادرة.

ومن هنا فإن أهمية هذه الحقبة على الصعيدين العربي والعالمي، وكونها مثلت،  
من جهة، مرحلة انتقال رئيسية في الواقع السياسي العربي، ومن جهة أخرى، ثراء  
الإنجازات التي تحققت على يد مستشركي تلك المرحلة، وزخم إنتاجهم، والدور الذي لعبوه  
في تشكيل العقل والرؤية الثقافية الغربية تجاه هذا الجزء من العالم، بشكل ساعد كثيراً  
على تحقيق عملية الإختراق الإستعماري للمنطقة العربية التي تواصلت بوضوح حتى  
الخمسينيات من القرن المنصرم، والحاجة إلى وعي خصوصية تلك المرحلة، هي جميعاً  
ما حفزنا على المغامرة بكتابة هذه الورقة. نأمل أن نتمكن خلالها من المساهمة بإثراء  
الحوار في مؤتمر الموقر، وأن تكون قد وضعت لبنة إلى جانب اللبنة الأخرى، على  
طريق تجذير الوعي بالتجربة الإستشرافية في المرحلة التي هي موضوع هذا البحث.

#### خلفية حول مفهوم الإستشراف :

تشير كلمة الاستشراف إلى علاقة بالشرق، غير أنه كمصطلح كان دائماً فضفاضاً  
وغير مرتبط بزمان أو مكان، وعلى الرغم من التباين، الحاد أحياناً، في تحديده كمفهوم  
بصورة راسخة، فإنه يشير إلى أن دراسة الشرق ومعرفته وفهمه هو الجامع المشترك في  
كل الآراء التي ناقشته وتتبع معطياته ومجالاته.

فقد عرف قاموس اكسفورد المستشرق بأنه الذي يتبحر في لغات الشرق وآدابه  
وعلموه. (العيان ص. 10). واقترب عدنان محمد ازان في كتابه الإستشراف والمشترقون  
من هذا التوصيف، حيث يرى أن الإستشراف كمصطلح أو مفهوم يطلق في العادة على  
اتجاه فكري يعنى بدراسة الحالة الحضارية للأمم الشرقية بصفة عامة، ودراسة حضارة  
الإسلام والعرب بصفة خاصة. (العيان 13:202). لكن وازن لم يشر إلى الجهات التي  
تتبع منها هذه الدراسات، ولا المكان الذي يخرج منه هؤلاء الدارسين، كما لم يتعرض إلى  
أهدافهم والغايات التي تحركهم.

أما إدوارد سعيد فإنه يشير في كتابه الإستشراق - المعرفة، السلطة، والإنشاء إلى أن الإستشراق يعني عددا من الأشياء هي جميعا متبادلة الاعتماد. إن الدلالة الأكثر تقبلا للاستشرق دلالة جامعية (أكاديمية). إن الملصقة ما تزال مستخدمة في عدد من المؤسسات الجامعية، تشمل كل من يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو بحثه. ويسري ذلك على التعامل مع الشرق سواء في المجالات المختصة بعلم الإنسان أو بعلم الاجتماع، وسواء كان المعني بذلك مؤرخا أو فقيه لغة، إن من يتناول الشرق في جوانبه المتعددة والعامية، على حد سواء، هو مستشرق، وما يقوم هو أو هي ببحثه فهو استشرق. لكن سعيدا ينبه إلى أن هذا المصطلح بالمقارنة مع الدراسات الاستشراقية أو الدراسات الإقليمية هو أقل تفضيلا اليوم لدى المختصين لسببين اثنين: أولهما كون التعريف غائما وعاما إلى درجة مفرطة، وكونه يتضمن الموقف التنفيذي السلطوي للاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. (سعيد. 38 : 1991). إنه بمعنى آخر، يرى أن هدف الاستشرق هو الحفاظ على السيطرة الثقافية عن طريق القبول الشرقي بقدر ما يمكن عن طريق الضغط الإقتصادي المباشر الخام من الولايات المتحدة. إنها لصدفة أن تجد عشرات من المنظمات لدراسة الشرق الإسلامي في الولايات المتحدة، بينما ليس ثمة مؤسسة واحدة في الشرق لدراسة الولايات المتحدة.

ويلاحظ أن إدوارد سعيد في تعريفه للإستشرق كان متأثرا إلى حد بعيد بالنكبة الفلسطينية، التي كان هو أحد ضحاياها، كما كان متأثرا بمطالعته للدراسات العنصرية التي تعاملت مع قضايا الأمة العربية بصور فاضحة في تحيزها، وبشكل خاص الموقف من قضية فلسطين. وقد طبعت هذه الرؤية معظم أعماله وفي المقدمة منها كتاب الإستشرق، وكتابه عن المسألة الفلسطينية *The Question of Palestine* وكتابه عن ثقافة الإمبريالية *Culture of Imperialism*. ولعلي اتفق، في هذا الصدد، مع الدكتور صادق جلال العظم في نقده لموقف سعيد من الاستشرق، حين وصفه بالاستقرار

بونة للبحوث والدراسات العدد : الثالث جمادى الأولى 1426 هـ / يونيو 2005 م  
والسكون، واعتبره موقفا استشرافيا معاكسا للإستشراق الغربي، يوقف الزمن ويفتقر إلى  
الديناميكية، ويعطي للثقافة الشرقية طابعا إيجابيا ثابتا غير خاضع لقوانين التطور  
والتغيير، لكن ذلك، على أية حال، ليس موضوع ورقتنا هذه.

ويقتررب أنور عبد الملك من رؤية سعيد للإستشراق، حيث يلاحظ في دراسته:  
الفكر العربي في معركة النهضة إن المستشرقين الذين صحبوا نابليون أثناء الحملة على  
مصر بهدف دراسة الأثرىات المصرية لم يطرحوا أنفسهم كعلماء آثار ولغويين فحسب،  
ولكن باعتبارهم زواجوا بين السلطات العلمية والسياسية، وتعاونوا مع أهدافها بشكل  
كامل. كما أن أمثال شامبليون ويندهام ليسوا فقط علماء أثرىات لكنهم علماء في وقت  
محدد وبصحبة ملك محدد. ولعل خير دليل على تلك الغايات هو تهريب المسلات وغيرها  
من الأثرىات الثمينة إلى الدولة الأم أو المركز. إن عبد الملك يرى أن هدف الإستشراق هو  
التعرف على الأرض المعدة للإحتلال، وغزو وعي الشعوب لضمان خدمة القوى  
الأوروبية بشكل أفضل (منصور، 34: 2001).

ويعرف الدكتور عمر فروخ، في مقالته التي نشرتها دورية سلسلة الثقافة  
المقارنة، في عددها الأول، كانون الثاني 1987 الصادرة عن دار الشؤون الثقافية العامة-  
بغداد الإستشراق بأنه اشتغال نفر من العملاء الغربيين بأحوال الشرق، وأن ذلك قد نشأ  
بعد الحروب الصليبية نتيجة لعوامل سياسية هدفت لتقديم معلومات ومعارف عن القوى  
الاستعمارية الغربية الفتية آنذاك، عن أحوال الشرقيين، لكي تسهل على رجال السياسة في  
الغرب تحقيق الإختراق السياسي والعسكري وتجعل من التعامل مع أمور الناس العملية  
في الشرق الغني أمرا ممكنا، يحقق الغاية والفائدة للدول الغربية القوية. ويرى فروخ  
أيضا أن الإستشراق كان بالإضافة إلى ذلك، غاية دينية لخدمة المبشرين الذين أرادوا أن  
ينشروا ديانتهم بين الشرقيين من مسلمين وغير مسلمين. أما الذين انطلقوا من إعجاب  
خالص لمعرفة أدب العرب خاصة، وفلسفة وعلوم الغرب فهم قليلون إذا جرى قياسهم  
بالذين رغبوا في الاستشراق اندفاعا في أهدافهم السياسية والدينية.

ونرى في هذا الصدد، أن من الأهمية التمييز في الدراسات الاستشراقية بين مجال الإنجازات التي تحققت في الحقول العلمية البحثية من مخطوطات ونشر ووثائق ومعاجم وفهارس، وتحقيق نصوص وغيرها، وبين الجانب الأيديولوجي الذي يغلب على الدراسات الاستشراقية، والتي ترد في الأطروحات ومناهج البحث عند تناول الدين الاسلامي والقرآن والسنة. إلا أن ذلك لا يعني أن النوع الأول من الدراسات، حتى وإن التزم بمقاييس علمية في التحليل والإستنتاج، كان برئيا تماما، ولم تقف خلفه أبعاد سياسية ومطامع استعمارية. وليس من شك في أن المستشرق سوف ينطلق من أرضية ثقافته ووعيه الخاص وأدوات تحليله بما في ذلك النظريات وطرق البحث، ولذلك فإن استنتاجاته ستكون وليدة بيئته وستكون متحيزة بالضرورة لصالح المركزية الغربية وغير عادلة عند التناول والتحليل. وما يضاعف في طبيعة الإنحياز هو ارتباطه بعصر الإمبريالية والكشوف الجغرافية والاستعمار، والانطلاق من المركزية الأوروبية.

لكن هذا الإستنتاج يجب أن لا يغيب عنا حقيقة أن كثيرا من النقد الذي نمارسه نحن بحق الاستشراق يتم بمعايير ذاتية وبإسقاط واقعنا وظروفنا المحلية والقومية على تلك الأنشطة. ومن هنا فإن القراءة تكون في الغالب هي قراءة الأنا للآخر. والأنا هنا ليست كتلة هلامية ولكنها أيضا ليست كتلة ساكنة. هنا على سبيل المثال، موقف عمر فاخوري في كتابه آراء غربية في مسائل شرقية: 1925 الذي يقترب في موقفه من موقف البروفيسور إدوارد سعيد في رؤيته للاستشراق باعتباره جزءا من نفي الآخر ومقدمة للهيمنة على مقدراته، وبين الأنا الذي يمثل طه حسين التائب من شرقيته والذي أفنعه نفسه بانتماء مصر للحضارة الإغريقية أكثر من انتمائها للشرق، وبالتالي انتماءه هو ذاته للثقافة الغربية وانفصامه عن الشرق.

إن الموضوعية والنزاهة، على أية حال، تقتضي منا التسليم بأنه رغم أن الإستشراق ليس شيئا جديدا، حيث كان هناك دائما متخصصون ودارسون أجانب أعطوا

بونة للبحوث والدراسات العدد : الثالث جمادى الأولى 1426 هـ / يونيو 2005 م

من جهدهم اهتماما كبيرا منذ وقت مبكر، إلا أنه كظاهرة أدبية وثقافية بأبعاد سياسية، برز بوضوح مع الهجمة الإستعمارية التقليدية على المنطقة العربية. وفي هذا الإتجاه، فإن كثيرا من الدراسات التي قامت بعملية رصد واستقصاء للحركة الإستشراقية، تشير إلى أن تلك الحركة كانت في معظمها جزءا من المقدمات التي هيأت لاحتلال الوطن العربي. لكن ذلك لا يعني عدم وجود مستشرقين متعاطفين مع حق شعوب هذه المنطقة في الحرية وتقرير المصير. لقد كان هناك منصفون، درسوا التاريخ والثقافة والآداب العربية، بتأن وروية وقدموا دراسات ثمينة، لا زالت حتى يومنا هذا تعتبر أحد مصادر المعرفة والتاريخ عن المشرق العربي.

وحول الزمن الذي برزت فيه ظاهرة الإستشراق يشير الباحث خيرى منصور في دراسته الإستشراق والوعي السالب إلى أن كلمة الاستشراق ظهرت للمرة الأولى بالإنجليزية عام 1779 *Orientaliste* قبل ظهورها في الأكاديمية الفرنسية عام 1838، رغم أن ولادة الاستشراق خارج هذا التحديد الرسمي تعود إلى وقت طويل قبل ذلك (منصور، 20: 2001). في حين يربط آخرون ذلك بالحملة الفرنسية التي قادها نابليون على مصر. ويشير آخرون إلى أن الإستشراق كعمل مؤسسي بدأ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، كمقدمة للهجمة الاستعمارية الغربية على الشرق، وبشكل خاص على الأمة العربية والثقافة العربية الإسلامية. ويشيرون إلى أن هذه الظاهرة، تقوم من جهة على نفي للآخر، ومن جهة ثانية يقوم الغرب من خلال الاستشراق بإنتاج ذاته أيضا، عبر تصورات، واستخدامه لأدوات تحليله الخاصة، دون وعي للمكونات والمورثات الثقافية التي صنعت شعوب الشرق. وعلى هذا الأساس، فإن الشرق بهذا المعنى، هو نتاج الغرب، وذلك يقترب من القول إن التخلف هو من نتاج التقدم.

إن معظم الذين تناولوا ظاهرة الاستشراق من الباحثين يعتقدون بأنها تزامنت مع الهيمنة والاهتمام بالبلدان المكتشفة كموضوع له سحر التاريخ وله عمقه الاقتصادي والإستراتيجي القابل للاستثمار (منصور، 20: 2001). وهكذا يمكن القول أن الإمتداد

## قراءة في استشراق ما بين الحربين العالميتين أ.د. يوسف مكي

والتوسع أديا إلى انتشار الظاهرة كجزء من عملية الكشف التي تمثل مقدمات أولية وأساسية لتحقيق عملية الإختراق بأبعادها المختلفة. وفي هذا الصدد يشير مكسيم رودنسون إلى أن المستشرقين يبدعون بدراسة اللغات وجميع المواد تحت دوافع أيديولوجية كاملة، تمثل أقنعة تختفي وراءها رغبات الهيمنة والتحكم.

وضمن هذا السياق، يبدو، من وجهة النظر هذه، أن هناك تطابقا كبيرا بين خريطة التوسع الأوروبي الاستعماري وخريطة التوسع والتقدم في مؤسسات الاستشراق. وذلك هو ما يوضح اتساع نشاط العمل الإستشراقي في الفترة بين 1865-1914، وهي الفترة التي شهدت شيخوخة السلطنة العثمانية، وبدء الإنقراض الأوروبي على تركتها. والتي تضمنت توقيع اتفاقيات ومعاهدات ضمنت للأوروبيين حصصا كبيرة في ممتلكات السلطنة، كما شهدت استقلال عدد كبير من دول البلقان. إن ذلك يطرح علامات استفهام كبيرة على التوصيف المألوف للمستشرقين الذي لا يرى فيهم سوى مجموعة من الحالمين الذين تحركهم شهوة المغامرة في بلوغ أقاصي الشرق. وأن تلك الشهوة ليست إلا فردية، ربما تصدر عن فنان أو رحالة أو فيلسوف. فلقد كان هناك على الدوام، باستثناءات قليلة، أسباب أخرى وأهداف محددة سلفا يبحث عنها المستشرق في البلاد المضيفة، التي يجري التخطيط للإنقراض عليها وعلى ثرواتها.. فعلى سبيل المثال، وصف المستشرق الروسي أ. ي. كراجكوفسكي الذي أقام في مصر عام 1901-1908 مبعوثا من جامعة بطرسبرج إلى أن الكتاب العرب يتعاطفون مع روسيا في حربها مع اليابان، ووصف تلك المشاعر العربية بأنها مبعث شرف لروسيا. (منصور، 20: 2001).

استشراق ما بين الحربين العالميتين:

تفصح القراءة المتأنية والواعية للتطورات الدراماتيكية التي شهدتها المشرق العربي والتغيرات التي حدثت في خارطته السياسية، قبل وبعد الحرب العالمية الأولى، كثيرا من الأمور عن دور الحركة الإستشراقية المباشر في التهيئة والتغيير الذي حدث

لاحقا في عموم المنطقة العربية. بل لعنا لا نبالغ إذا قلنا بانغماس عناصر بارزة ومشهود لها بالقيام بأدوار هامة في الأعمال الإستشراقية قد كان لها دورا مباشرا في الصراعات الإستعمارية وتغليب مصلحة فريق على فريق آخر.

ومن بين الحقائق التي ينبغي الإشارة لها في هذا الصدد أن هناك تنافسا غريبا محمومًا على المشرق العربي، مثلته في مطلع هذا القرن ثلاث قوى رئيسية هي ألمانيا وبريطانيا وفرنسا. ذلك لا يعني البتة أن المطامح الاستعمارية ووجود هذه القوى بالمنطقة قد ارتبطت بتلك المرحلة، بل سبقتها قبل ذلك بوقت طويل. لكننا فقط ننوه إلى مقدمات الحرب العالمية الأولى، وكيف كان لتلك المقدمات أثر في نمو الحركة الإستشراقية.

كان هناك تنافس محموم بين البريطانيين والألمان حول منطقة الخليج العربي، وكان الألمان قد بدعوا في تعزيز نفوذهم بالتحالف مع الأتراك، والمضي قدما في تنفيذ مشروع سكة حديد البصرة. وقد بدعوا التحضير لذلك بإرسال مجموعة من العلماء والباحثين الذين لعبوا فيما بعد أدوارا بارزة في الكتابة عن أرض السواد، والكشف عن أسرارها ومكوناتها. وكان البريطانيون يسعون إلى تأمين الطريق إلى الهند، درة التاج البريطاني، من خلال التحكم في المناطق التي تربط شرق السويس بالخليج العربي.

وهكذا فرضت على مشيخات الخليج اتفاقيات ومعاهدات حماية ضمنت للبريطانيين سيطرة مطلقة على المنافذ والخطوط الاستراتيجية الموصلة للهند، وفي مقدمتها مضيق هرمز. لكن قلب الجزيرة العربية بقي مجزءا وتتناسم الحكم به عوائل موالية للسلطنة العثمانية. حيث كان الشريف حسين في الحجاز، وكان ابن الرشيد في نجد والمنطقة الشمالية، وكانت هناك حامية تركية تدير الحكم بشكل مباشر في إقليم الأحساء. أما جنوب الجزيرة، فكان الإمام يحيى يفرض سيطرته على اليمن الشمالي، وترتبط به بعض الأسر في منطقة عسير.

وأثناء تلك الحقبة كان التملل الشعبي في بلاد الشام والعراق قد بدأ في التصاعد،



قراءة في استشراق ما بين الحربين العالميتين أ.د. يوسف مكي

كما برزت جمعيات ومنظمات سرية تطالب بتحقيق الإستقلال والإنفصال عن السلطنة. وقد استثمرت حركة اليقظة العربية الصراع الدولي لتصعيد مطالباتها بالإستقلال، ويوضح كتاب اليقظة العربية لجورج أنطونيوس كيف تم تحقيق التحالف بين البريطانيين وقادة الحركة القومية والمراسلات التي جرت بين مكماهون، المندوب السامي البريطاني بالقاهرة، وبين شريف مكة، الحسين بن علي، والتي انتهت بإطلاق الرصاصة الأولى للثورة العربية المناهضة للإحتلال التركي من مكة المكرمة.

ما يهم هذه الورقة من التركيز على تلك الحوادث هو بروز شخصيتين بريطانيتين أسطورييتين تشكلان أمثلة فاضحة على ترابط الأعمال الإستشراقية بالهجمة الإستعمارية، كمدخل لا بد منه لدراسة ظاهرة الإستشراق فيما بين الحربين. هاتين الشخصيتين هما: توماس إدوارد لورانس الذي اشتهر بلورانس العرب، والذي كان مستشارا للحسين بن علي شريف الخجاز، وجون فيلبي، الذي كان مستشارا للملك عبد العزيز بن سعود، بالرياض الذي أصبح لاحقا ملك المملكة العربية السعودية.

ان دور هاتين الشخصيتين يعكس الصراع الميرير بين دائرة الإستخبارات البريطانية في لندن ودائرة الاستخبارات البريطانية في الهند. ورغم أن الصراع بين الدائرتين كان قاسيا ومرا، لكنه في نتيجته قد عبر عن علاقة تكاملية بين الجهازين.

ففي المرحلة الأولى، لعبت دائرة الاستخبارات البريطانية في المركز الأم، لندن دورا أساسيا، من خلال التنسيق مع فرعها بالقاهرة، في الإعداد للثورة العربية التي قادها الشريف حسين، وأشرف على أدائها المستشرق، لورانس العرب. وكانت شعاراتها المعلنة هي استقلال المشرق العربي، كأحد الأوجه المعبرة عن طبيعة التوجه القومي في تلك المرحلة. إن الحديث عن الثورة العربية، ودور الشريف حسين والقوميين العرب، ومسار العمل العسكري في الحرب العالمية الأولى ضد العثمانيين بالمنطقة العربية لا يمكنه أن يغفل دور هذه الشخصية الأسطورية. لقد تقمص هذا الرجل دور الشخص العربي، وعبر في سلوكه عن نزعات رومانسية مشرقية. وربما تحول العقال والغترة والدشداشة،

في نظره، إلى وسيلة لتحقيق هدف ذو حدين، الأول هو التماهي مع النزعة الرومانسية، وكان ذلك جزءا من تمثله للإستشراق، والثاني، هو التجانس مع المخططات الاستعمارية، وكانت صورته العربي التي تقمصها جزءا من عدة شغله.

لقد لعب لورانس دورا مهما في الغزو البريطاني للمنطقة، وكان تقمصه لدور البدوي ابن المنطقة، سواء عبر اتقانه اللهجة أو ارتدائه الملابس البدوية ومعرفته بعادات البدو الرحل، وتنقله بالصحراء دورا هاما في نجاحه بقيادة جيش الشريف حسين، أثناء زحفه إلى دمشق لطرد العثمانيين، مما مهد الطريق أمام جيش اللنبي الزاحف الى فلسطين، من السويس. ومن غير المنطقي تخيل نجاح لورانس في مهامه لو لم يكن على معرفة تامة بالعادات والثقافات ومهيئا للقيام بدور التقمص..

درس في جامعة أكسفورد وتعلم اللغة العربية ثم انتقل للعيش بالمناطق العربية الخاضعة للسيطرة العثمانية حيث قام بتوجيه من جهاز الإستخبارات البريطاني بتحريض العرب للثورة على العثمانيين ومهاجمة مواقعهم، وإقامة صلات خاصة مع الشريف حسين ونجله الأمير فيصل الأول، ولعب دورا كبيرا في التأثير على الأحداث التي شهدتها الجزيرة العربية وبلاد الشام في فترة الحرب العالمية الأولى، وما بعدها، وله عدة مؤلفات عن المنطقة العربية. ولعل أشهر كتبه هو كتاب أعمدة الحكمة السبعة. ولكنه لم يكن كثيرا من عطائه في الدراسات الإستشراقية كما كان جون فيلبي، نظرا لانشغاله بزخم اللحظة ومتطلبات العمل العسكري، لكن عطائه في هذا المجال جدير بالملاحظة والإعتراف به على كل حال.

أما جون فيلبي، والذي عرف لاحقا بعد اعتناقه للإسلام بـ عبد الله فيلبي، فإن الوثائق المتوفرة في المتحف البريطاني تشير إلى أنه كان مرتبطا بالإستخبارات البريطانية بالهند، وأنه أرسل للمنطقة لمواجهة نتائج معاهدة سايكس بيكو، والمساهمة في احتواء تداعياتها. لقد شكلت معاهدة سايكس بيكو قمة الغدر البريطاني بالأمة العربية، وأصبح من المحتم

التخلص من الرمز المغدور به في هذه المعاهدة: شريف مكة والقوى النخبوية التي ساندته في الشام والعراق، على أمل تحقيق استقلال المشرق العربي، كخطوة أولى على طريق تحقيق الوحدة العربية.

لقد جاء إلى المملكة العربية السعودية وأصبح مستشاراً للملك عبد العزيز بن سعود. وخلال فترة وجوده ساهم بشكل مكثف في الكشف عن أسرار ومكنونات مناطق واسعة من البلاد. وأثرى المكتبة العربية بمجموعة من الكتب والدراسات، وكشف عن كنوز ضخمة يقصدها المستشرقون ورجال الإختصاص من ضمنها: أرض الأنبياء وتاريخ جزيرة العرب ومدائن صالح والوهابيون ونجد والربع الخالي. وقد اعتبر كتابه أرض الأنبياء واحداً من الدراسات الفريدة في نوعها - كما تفرد كتابه مدائن صالح بكونه من أول الكتب التي تناولت بالدراسة المنطقة الشمالية من الحجاز، بحراتها ومفاوزها وأثار طرق القوافل فيها. وقد كشف فيها عن مواطن "عاد" و "ثمود" وأين قطن "شعيب وراعي الغنم" موسى". وقد تميزت دراساته بدقة العالم الضليع في وصفه، وجدية الرحالة بأسلوب جميل أخاذ. ومن صخرة "أبي الهول" على مقربة من خيبر إلى "أبيار شعيب، في مدين" تجده ينبش كل حادثة تاريخية، ويشير إلى الدراسات التي أجريت عن هذا الموضوع.

ومن المفيد الإشارة إلى أن الوجود الإستشراقي بالجزيرة العربية لم يقتصر على هاتين الشخصيتين، وإن يكن الدور السياسي الذي لعباه هو ما يمنح أعمالهما الإستشراقية بصمة خاصة. لقد برزت في الجزيرة العربية خلال تلك الحقبة شخصية ثالثة، عرفت بمحمد أسد. وقد برز لقراء العربية من خلال كتابه الذي اشتهر بعنوان الطريق إلى الإسلام، ومن خلال هذا الكتاب روى قصة اكتشاف رجل أوربي الإسلام، واعتناقه للدين الحنيف، وانتقاله من دين إلى دين، ومن أوروبا إلى مكة والمدينة ومن ثم إلى باكستان. وقد نشر هذا الكتاب باللغات الإنكليزية والألمانية، والهولندية، والسويدية.

والواقع أن المرحلة فيما بين الحربين العالميتين قد شهدت نشاطا كبيرا وواسعا للحركة الإستشراقية، لا يمكننا رصدها بدقة في هذه العجالة، ولذلك فإننا سنكتفى بتقديم رصد سريع وموجز بهدف إلقاء الضوء على نشاطات هذه المرحلة.

فقد نشر كانتيتو، وهو من أبرز دارسي اللهجات العربية من المستعربين في النصف الأول من القرن العشرين، ويعد رائدا في الجغرافية اللغوية العربية وأطالسها كتابه لهجة عرب تدمر، في جزئين صدرا ضمن منشورات المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق عام 1934. ونشر أيضا كتابا بعنوان : بعض لهجات بدو العرب في الشرق، ضمن منشورات كلية الآداب بمدينة الجزائر عام 1937 كما نشر أيضا كتابا بعنوان اللهجات العربية في حوران، مع ملحق بخرائط جغرافية للمناطق التي تناولها الكتاب، ضمن منشورات الجمعية اللغوية بباريس سنتي 1940 و1946. وكان قد نشر في عام 1941 كتابا آخر بعنوان محاضرات في علم الصوت العربي بالجزائر. (العليان، 84: 2003).

ومن جهة أخرى، نشر هنري فليش كتابا بعنوان مدخل إلى دراسة اللغات السامية، بباريس عام 1947. كما نشر أيضا كتابا بعنوان العربية الفصحى - دراسة البنية اللغوية عام 1956، وأعيد طبعه عام 1968. (العليان، 84: 2003).

وعلى صعيد العناية بالتاريخ كان هناك كثير من المستشرقين ممن اهتموا بالدراسات التاريخية فيما بين الحربين. وقد شمل ذلك، الإهتمام بالشخصيات والأحداث والنظم السياسية والإقتصادية والتشريعية للعالم العربي. ومن المستشرقين الذين أسهموا اسهاما رائدا في مجال الدراسات الأدبية واللغوية والمعجمية العربية، ولهم بصماتهم الكبيرة والمرجعية المستشرق الألماني، كارل بركلمان صاحب كتاب تاريخ الأدب العربي، بأجزائه الخمسة والمرجع الذي لا غنى عنه للباحثين في هذا التخصص العام في الفكر والأدب العربي، وله أيضا تاريخ الشعوب الإسلامية الذي صدر في عام 1939

باللغة الألمانية، فكان أول كتاب يضم تاريخ العرب والمسلمين منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث. ومنذ ظهور هذا الكتاب أصبح مرجعا لا يستغني عنه باحث في تأريخه لأية مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي، وقد ترجم هذا الكتاب بعدد من اللغات العالمية. أما ترجمته العربية فقد نشرتها دار العلم للملايين للمرة الأولى عام 1948. ولبركلمان عدد كبير من المؤلفات والتراجم، وتحقيق المخطوطات في المجال الأدبي من ضمنها مؤلفات ابن المقفع في البيان والبلاغة، وقواعد اللغة العربية لسوسين، وتاريخ الآداب النصرانية في الشرق، وملاحظات شتى على تاريخ الآداب العربية، واللغات المتشابهة في اللغات السامية، والوهرى وترتيب الحروف الهجائية، وأسماء التصغير والتكبير في اللغات السامية، وملاحظات شتى في اللغة الكنعانية، في تصنيف كتاب العربية فقها وأدبا، وله أيضا إسهامات كبيرة في دائرة المعارف الإسلامية، خاصة في الدراسات التاريخية والأدبية.

ومن بين المستشرقين البارزين فيما بين الحربين العالميتين، الذين اهتموا بالدراسات العربية وأدبها وغيرها من المجالات الأخرى المستشرق الإنجليزي، هاملتون جيب الذي نال شهرة واسعة، وكان هناك تقييم متناقض لأعماله، لكن ذلك لا يلغي كونه أحد المتخصصين في اللغات السامية ومنها العربية. وأصبح بعد ذلك أستاذا في اللغة العربية بجامعة لندن. وفي عام 1926-1930 عين بلقب قاريء في تاريخ العرب والأدب العربي بجامعة لندن. ولما توفي السير توماس أرنولد في عام 1930 خلفه على كرسي اللغة العربية في نفس الجامعة، إضافة إلى احتفاظه بمقره في مدرسة اللغات الشرقية. كما خلف توماس أرنولد أيضا كمحرر بريطاني لدائرة المعارف الإسلامية. وفي عام 1945، كان أحد المشرفين الأوائل على الطبعة الثانية من دائرة المعارف الإسلامية، ثم اعتزل العمل عام 1956، حيث صار استاذا للغة العربية في جامعة أكسفورد، ثم زميلا في كلية سانت جون باكسفورد.

وتميزت كتابات جيب بتعدد موضوعاتها، وله عدد كبيرة من الأبحاث والمؤلفات في اللغة العربية، والأدب العربي، ودراسات في الأدب العربي المعاصر. ومن مؤلفاته: شاعر ونحو عربيان، والتراجم الأدبية الإسلامية، والمدخل إلى تاريخ الأدب العربي، وكثير من الدراسات العربية الأخرى في التاريخ والقانون والفلسفة والتراجم وغيرها. ونتيجة لذلك جرى تكريمه بتعيينه عضواً في المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي بالقاهرة.

وفي هذا الإتجاه أيضاً، كتب المستشرق الفرنسي، هوار تاريخ بغداد في العصر الحديث عام 1901، كما نشر كتاباً بعنوان تاريخ العرب، صدر في باريس عام 1913. ونشر المستشرق الفرنسي، فييت بحثاً بعنوان: مصر العربية من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، باريس عام 1932. ونشر هنري دوسو، بحثاً بعنوان الطوبغرافيا التاريخية السورية سنة 1932. وأصدر ليفي بروفنسال كتاباً بعنوان الحضارة العربية في أسبانيا، القاهرة عام 1938، كما نشر دراسة بعنوان التاريخ السياسي لأسبانيا في عهد الخلافة سنة 1950. وألف جورج ماسيه كتاباً بعنوان فن العمارة الإسلامية في الغرب سنة 1954.

وقد اشتهر بين المستشرقين البارزين في مجال الدراسات التاريخية للعرب والإسلام المستشرق الإيطالي، كارل تليلنو الذي انتخب عضواً في المجمع العلمي بدمشق والمجمع اللغوي بالقاهرة منذ تأسيسهما. وقد كتب عن: تكوين القبائل العربية قبل الإسلام، ومشاهد من الحياة المصرية، ونشر كتاب البيان لابن رشد، وأصدر كتاباً عن الكتابات العربية على القبور في جنوبي إيطاليا، وله تاريخ الأدب العربي، وكتاب التنجيم الشعبي عند العرب، وشعر ابن القارض والتصوف الإسلامي، ودراسة المفردات والحركات العربية، وتاريخ اليمن قبل الإسلام، وتاريخ مسلمي صقلية، وكتب في دائرة المعارف الإيطالية. وكانت مشاركته في دائرة المعارف قد تضمنت الكتابة عن بعض القضايا وأعلام العرب والمسلمين. كما شارك في دائرة المعارف الإسلامية. وعني بشكل خاص، ببلاد العرب بعد الإسلام.

ومن المستشرقين الذين كانت لهم اسهاماتهم بالأبحاث حول موضوع التاريخ العربي، والذين برزوا فيما بين الحربين، المستشرق الألماني، فرتز هلموت. وقد حملت رسالته للدكتوراة عنوان: كتاب عربي في علم التجارة. وقد نشرت عام 1917. ومن آثاره دراسات موصلية، وقد جاءت تحت عنوان: السفن العربية في الفرات ودجلة. كما قام بتحقيق بعض المقالات لإسلاميين كبار، ككتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري، والسوانح لأحمد الغزالي، وغاية الحكيم للمخريطي، وأسرار البلاغة لعبد القادر الجرجاني، ومشارك أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب، تأليف عبد الرحمن بن محمد الأنصاري، دراسات في تاريخ التقوى الإسلامية للحسن البصري، وطبقات ابن سعد. واشترك مع فليتنر في نشر رسالة الكندي المعروفة بـ في دفع الأحران. وله الكثير من الأبحاث والدراسات الأخرى. (العليان، 99: 2003).

وعرف عن المستشرقين أثناء تلك العقود قيامهم ببعثات علمية لبعض البلدان العربية والإسلامية، للإطلاع على الآثار وتقصي بعض المعلومات، وكانت أول بعثة ألمانية برئاسة كال راينتس، عالم الآثار المشهور، وهيرمان فون فيزمان، عالم الجغرافيا. ثم تبعهما المستشرق الألماني، آبتز. وخلال الأعوام الخمسة التي قضتها البعثة في اليمن من عام 1927-1931، قامت بالتحريات الجغرافية والجيولوجية ودراسة النباتات الطبيعية، وبمساعدة من إمام اليمن، بدأت الحفريات الأولى في معرض السبأيين، بعد استكمال الدراسات الأولية. وقد حدث فيزمان، أحد أعضاء البعثة الألمانية بأن إمام اليمن أرسل معهم إلى معبد السبأيين فريقاً من الجنود، بقيادة الشريف سيدي عبد الله وقد استقبلت البعثة هناك بحفاوة بالغة التقدير. وعندما وصلت إلى مواقع الآثار الرئيسية على سفح جبل، في الجنوب شاهدوا رجالاً منهمكين في الحفر والبحث عن الآثار بصورة سريعة للحصول على بعض الأواني والقطع الحديدية. وكان من المدهش الغريب أنهم كانوا يهدمون الجدران والأعمدة المرمية والتمائيل التي تقف أمامهم بطرق بدائية.

بونة للبحوث والدراسات العدد : الثالث جمادى الأولى 1426 هـ / يونيو 2005 م

ولم تستطع البعثة الأثرية إقناعهم بأهمية جدار وحجر وطابوقة وعمود من المرمر، لأنها آثار قديمة ومهمة وثرينة جدا. وكان على البعثة أن تذهب إلى سيدي عبد الله لتوضيح أهمية هذه الآثار، وخطورة ما يفعلون وإعطاء الأوامر بالتوقف عن التهديم والتخريب، وترك كل جزء من هذه الجدران والأعمدة والصخور في مكانه دون تهديمه أو تحريكه أو رميه، إلا بموافقة البعثة. غير أن سرعة الرجال في الحفر والتهديم لم تجنب المخاطر ولم تساعد في المحافظة على قطع الآثار الثمينة. وفي مدة قصيرة كان قد تم تهريب الكثير من هذه القطع الأثرية، وكانت أجمل قطعة آثار وأثمنها هو رأس الأسد البرونزي الذي عثر عليه، إلا أنه اختفى بسرعة خاطفة. وقد وجدت أجزاء مكسورة من رأس أسد برونزي آخر لا يقل جمالا وأهمية عن الأول في مدينة حجا، وكان علي البعثة أن تفتش عن الآثار المهمة التي اختفت من معبد سبأ في كل بيت من بيوت المدينة. وقد وجد أن كثيرا من القطع الأثرية النادرة كانت قد استعملت في بناء البيوت، أو لصقت على الجدران، أو أنهم جعلوا من قطع الرخام الثمينة أبوابا للبيوت أو إطارات لشبابيك الغرف. (العليان، 116: 2003).

ومن المستشرقين الذين اهتموا بالآثار العربية وكشف مكوناتها التاريخية والحضارية في اسبانيا، المستشرق الاسباني بلباس في يوبولدو توريس الذي كان مشرفا على علم الآثار في مجله الاندلس ومن بين أبحاثه في هذا الجانب العماره الاسلاميه فى الغرب، الحمراء منذ قرن، وآثار غرناطة، تعليقات على الحمراء، تاريخ مدفأة، ينابيع غرناطة، الحمامات الاسلاميه فى جبل طارق، الآثار العربيه فى غرناطة، جولات اثريه خلال اسبانيا الاسلاميه، خطوط البيوت العربيه فى الحمراء، قباب اهم المساجد الاسبانية والتونسيه فى القرنين التاسع والعاشر الميلادى، الفن الاسلامى الاسبانى، التأثير الفنى للإسلام فى اسبانيا، الاصل العربى لكلمه الفرنسيه، تعليقات عن اشبيلية فى العصر الاسلامى، الحمامات، البيوت، قصور البحيرة، الفن الاندلسى، معلومات جديده عن مسجد قرطبة، السكان المسلمون فى بلنسية، الفن الموحدى، والفن النصرى، والفن المدجن،



## قراءة في استشراق ما بين الحربين العالميتين أ.د. يوسف مكي

المهن الاسلاميه فى اسبانيا وتخطيطها، عمائر موحديه، السيراميك الاسلامى الاسبانى، الحضارة المستعربه، التزيينات فى قصر الجعفرى، وغيرها الكثير من الابحاث والدراسات عن الحضاره فى اسبانيا.

وكان للمستشرق جورج مارسه بصمة واضحة فى كتابه عن تاريخ الحضاره العربيه الاسلاميه واثارها المشرقه، وقد عين عام 1919، استاذاً للاثار الاسلاميه فى كليه الاداب بالجزائر ومديراً لمعهد الدراسات الشرقيه بالجامعه نفسها. ومن اثاره، تاريخ العرب فى بلاد البربر، وقبة جامع القيروان الكبير، فن الجمال الاسلامى، الكتابات العربيه على كاتدرائيه بوى، الفن الاسلامى فى اسبانيا، تلسمان مدينه الفن والتاريخ، جوامع القاهرة، مسأله الصور فى الفن الاسلامى، اثر الاندلسيين فى بناء مساجد تونس، الخزف فى فاس، جامع الوليد فى دمشق، اسد من الرخام فى قلعه بنى حماد، ضريح سيدى عقبه، مداخل الجوامع فى الشرق والغرب، العماره الاسلاميه فى مصر، فسيفساء الجامع الكبير فى قرطبه، ثلاثه اشكال زخرفيه فى قرطبه، والكثير غيرها من الابحاث والدراسات.

هكذا برزت ظاهرة الاستشراق فيما بين الحربين، غزارة فى الإنتاج وتماه مع المخططات الهادفة إلى إحكام قبضة السيطرة على الأمة العربية فى الجزء الشرقي منها، كان بودنا لو تمكنا من استقصائها وحصرها، لكن عذرنا أن الهدف من هذه الورقة هو تسليط الضوء والخروج برؤية عامة عن نشاطات المستشرقين فى تلك الحقبة.

### التحليل والإستنتاج:

إن قراءتنا للظاهرة الإستشراقية، كما تمت فى هذا الرصد السريع، تجعل من الصعوبة بمكان الخروج بقانون قيمي أو معياري عام عنها، ذلك أنها شأنها فى ذلك شأن كل الظواهر الإنسانية الأخرى يمكن أن تكون ذو حدين. حد إيجابي يتمثل فى التفاعل والتكامل بين الثقافات ومظاهر الحضارات الإنسانية، ويمثل هذا الوجه عناصر التقدم والتسامح، التي ترى فى النضال الإنسانى وحدة لا تتجزأ، وتعتبر إنجازاتها فى حلقة

معينة إنجازا للبشرية بأسرها. أما الحد الآخر، فيهدف إلى تسخير المعرفة والعلم وعملية الكشف من أجل تحقيق الإختراق والهيمنة، وذلك هو النهج الذي اعتمده العلماء والباحثون والفرق الاستكشافية العلمية التي رافقت الاستعمار الغربي، وأصبحت طليعته وأحد أهم أدواته في الكشف عن المكونات والثقافات والثروات والعوامل الأخرى التي تمنح هذه المنطقة بصماتها وهويتها.

ومن هنا فإن من الصعب فهم الظاهرة الاستشراقية ومناقشتها دون وضعها ضمن إطارها العام في الصراع الكائن بين الشرق والغرب. فقد وجدنا أن الخطابات هي تعبير عن الجبهة التي تطلقها أو تصدر عنها. وهكذا فالخطابات العربية الإسلامية هي تعبير عن رؤية العرب والمسلمين، مثلما أن الخطابات الاستشراقية تعبر عن الجبهة الغربية وعن مصالحها وامتيازاتها. لكن ذلك يضعنا إزاء قضية أخرى ينبغي التنبيه لها، هي العلاقة بين الأنا والآخر.

فقد أشرنا في موقع آخر من هذه الورقة إلى أن المجتمعات الإنسانية ليست كما يبدو على السطح كتلا هلامية، لكنها أيضا، ليست كتلا صماء. إن التقسيم الحاد لـ "الأنا" الذي هو موضوع الاستشراق و "الآخر" المتمثل في المستشرقين، يفترض في منطلقاته تجانس كل قطب من أقطاب المعادلة على حدة، وتتأفر هذا القطب مع الآخر. وهذا في واقع الأمر فصل تعسفي ينقصه الوعي بوجود تناقضات ومصالح ورؤى وتوجهات مختلفة في المجتمع الواحد، وأن الأمر لا يمكن وضعه في كفة ميزان واحدة عند كل طرف.

فعلى سبيل المثال، أشارت تقارير حديثة إلى أن نسبة كبيرة من شعوب أوروبا تتعاطف الآن مع القضية الفلسطينية، وتجد في الكيان الصهيوني تهديدا جديا للسلام العالمي، بينما تقف الحكومات والقوى الطبقية التي تردفها في أوروبا الغربية مؤيدة للمشروع الصهيوني. وفي الولايات المتحدة الأمريكية، أصدر مثقفون بارزون، أثناء

الحرب التي شنتها حكومة بلادهم على أفغانستان، بيانهم المشهور "إنها ليست حربنا"، وأدانوا سياسات حكومة بلادهم في أفغانستان والعراق وفلسطين، وبقية منطقة الشرق الأوسط. وبالمثل انقسمت الحكومات والشعوب في أمريكا وأوروبا تجاه العدوان الأمريكي على العراق.

ولعلي استعير في هذا الصدد ما كتبه هاشم صالح في مقدمة كتاب الإستشراق حيث قال : " على الرغم من القواسم المشتركة بين مختلف الخطابات الاستشراقية إلا أنه لا يمكننا أن نهمل الفروقات المتدرجة الكائنة بينها، وهي فروقات مهمة أحيانا. صحيح أنها تدافع جميعها عن المنهجية الغربية، أو المنهجية العلمية التاريخية، وتدعو إلى تطبيقها على التراث الإسلامي، إلا أنها تختلف في ما عدا ذلك، فمنهجية رودنسون ذات تلوين اجتماعي-ماركسي، أكثر من منهجية بيرنارد لويس التي يبدو أنها تنتمي إلى منهجية تاريخ الأفكار التقليدي، كما هو سائد في الغرب منذ القرن التاسع عشر، منهجية فيلو لوجية تاريخية كلاسيكية لا تعنى كثيرا بالمشروطية الاجتماعية الاقتصادية للموضوع المدروس، وإنما تدرس الأفكار وكأنها ذات كيان مستقل بذاته. وكذلك منهجية كلود كاهين، فهي تولي أهمية للعوامل الاجتماعية والإقتصادية أكثر من منهجية فرانسيسكو جابريالي، أو وليام كانت ويل سميث، وهذا الفرق مهم ولا يمكن الاستهانة به. ويلاحظ أن الجيل الذي برز فيما بين الحربين يميل إلى استخدام أحدث المنهجيات والمصطلحات والإستشهاد بأسماء المفكرين الطليعيين".

وبالمثل، فإن الاختلافات السائدة بين المستشرقين الغربيين لها ما يعادلها في خطابات المتقنين العرب. فالمواقف إزاء الأستشراق ليست كتلة واحدة منسجمة، وإنما هي مشكلة من عدة اتجاهات متغايرة متنوعة ومتناقضة.

إن ما أود التركيز عليه هو أن هذه المجتمعات، إذا، ليست كتلا صماء، ولا هي بالمتجانسة، بل تتفاعل إنسانيا مع ما يجري حولها، وتحدد مواقفها، ليس بالضرورة على

بونة للبحوث والدراسات العدد : الثالث جمادى الأولى 1426 هـ / يونيو 2005 م

أسس الوعي والمعرفة والإلتزام الأخلاقي، ولكن ضمن اعتبارات المصالح، وهي اعتبارات أكثر وجاهة وتقديرا في عرف المتنفعين وأصحاب رؤوس الأموال، والحكومات التي ترعى مصالحهم.

وهذا القول عن "الآخر"، ينسحب أيضا على "الأنا" فهذا -الأنا- ليس مجتمعا ساكنا أو منسجما، ولا يعيش خارج التاريخ. إنه في القلب من هذا العالم يتأثر به ويؤثر فيه، وتحكم العلاقات بين أفراد وطبقاته قوانين الوحدة والتناظر، وهو أيضا خاضع لصراع المصالح واختلاف الرؤى والتوجهات، داخل كل قطر على حدا. وهو بالإضافة إلى ذلك كله، يعيش واقعا مجزءا، فرضته طبيعة المواجهة مع المحتل، ورسم الخرائط بين المنتصرين. وقد أصبحت الدولة القطرية مع مرور الأيام واقعا معترفا به، ومقبولا من قبل شرائع اجتماعية مؤثرة، رغم ما تسببت به من كوارث ومحن، بما يعني أننا أمام أكثر من أنا وأكثر من آخر. والأنا العربي قد تناقض بعضه مع بعضه الآخر في مواقفه، بشكل أصبح معه متعذرا الحديث عن موقف واحد وأنا واحدة. وقد تعاظمت الشروخ وتعددت المنافذ، وتضاربت المصالح بشكل دراماتيكي في العقود الأخيرة المنصرمة، واستمرت بشكل متصاعد، في البنیان الاجتماعي الواحد في معظم البلدان العربية. أصبح الآخر، إن في صيغة استعمار واحتلال أو في صيغة استئثار يهيمن في القلب من الأنا، ويجد خطوطا عدة تدافع عنه... وتتصدى له هنا وهناك مقاومة، تتواجد أيضا في القلب وفي الاطراف، وهناك في العواصم والمدن الرئيسية للآخر.

والخلاصة، أن الفصل بين ما هو إنساني على أساس اعتبارات الأنا والآخر لم يعد ممكنا، وأن الأمر الذي يجب أن نواجهه، في عملية الإبداع والفن والكتابة هو أننا لسنا قطبا واحدا في مواجهة قطب آخر، بل أن المواجهة هي في داخلنا وضمن شرائحنا، كما هي مواجهة في قلب الآخر وضمن شرائحه. ومن هنا يجب التمييز بين ما هو إنساني وقائم على أساس الإعتراف بالمصالح والتفاعل بين الشعوب، سواء صدر عنا أو صدر عن مبدعين وعلماء وفنانين فيما يمكن أن نطلق عليه بالإستئثار، وبين رفض الإحتلال

والإستغلال بكافة شرائحه ومكوناته وأصوله وجنسياته.

ملاحظة أخرى في هذا الإتجاه، هي أن قراءتنا المستمرة عن الاستشراق قد اتخذت طابع الهروب إلى الأمام. فنحن أمام تغييب حرية الفكر ومصادرة الرأي والرأي الآخر، وأمام حالة الإستبداد وعجزنا عن مواجهة تلك الحالة، فإن النخب العربية أخذت تبحث عن مشجب تعلق عليه أسباب فشلها ونكوصها وانكفائها، بدلا من أن تقتحم هي وتنتقم إلى الأمام وتلعب الدور الذي يفترض فيها أن تمارسه. لقد كانت نخبا عاجزة حقا، في مواجهة الاستعمار وأدواته أثناء هجمته فيما بين الحربين العالميتين، ولم تقدم مشاريع بديلة. كانت تنتظر من الآخر أن يتحمل مسئوليتها التاريخية بالنيابة، وحين يقدم هذا الآخر مشاريعه التي تتسجم مع مصالحه نصاب بحالة غضب وإحباط، ونمارس ردة الفعل بدلا من الفعل. وهكذا كانت أدبياتنا مرثيات وبكاء على الأطلال، وسخط على الآخر، بدلا من أن تكون استشرافا للمستقبل ورسم لاستراتيجيات جديدة لمقاومة التغريب.

إن الحديث عن الإستشراق وأهمية الإنفتاح على أدبياته وعطاءاته، والإستمرار في المطالبة برفع وتيرة تفعيل الحوار مع "الآخر" يطرح مشروعية أخرى لا تقل وجاهة، ولها أرجحية مؤكدة عليه، هي حوار "الأنا". كيف يمكن في ظل انعدام الإعتراف بالتعددية واحترام الرأي الآخر، وتغييب مؤسسات المجتمع المدني أن يتحقق حوار متعادل ومتكافئ مع الذات، ننطلق منه في حوارنا مع الآخر. لقد كنا في المجتمعات القبلية والعشائرية نملك أدواتنا الخاصة لمثل هذا الحوار، المنطلق من وعي المرحلة التاريخية التي كنا نحياها، وتغيرت الظروف، وتراجعت القبيلة في ظل نمو مشوه للإقتصاد والمجتمع في معظم الأقطار العربية. وفي ظل ضعف التشكيلات الإجتماعية العربية، تعطلت عملية النمو السياسي والإجتماعي والإقتصادي على كل الأصعدة، فهل من المنطق أن نتكلم عن الاستشراق وعيوبه، وعن أهمية الحوار مع العناصر الفاعلة فيه، دون أن نصلح بيتنا، ودون أن يتعمق الحوار في الداخل مع الأنا.. ثم ننطلق محصنين

بونة للبحوث والدراسات العدد : الثالث جمادى الأولى 1426 هـ / يونيو 2005 م  
إلى الآخر. وكيف يتحقق مثل هذا الحوار، ذلك هو السؤال..

### المراجع

- 1- العليان، عبد الله على. الإستشراق بين الإنصاف والإجحاف. المركز الثقافي العربي- بيروت، 2003.
- 2- سعيد، إدوارد. الاستشراق: المعرفة، السلطة، الإنشاء. ترجمة كمال أبوديب. مؤسسة الأبحاث العربية- بيروت، 1995.
- 3- رسول، محمد رسول. الغرب والإسلام: قراءة في رؤى ما بعد الإستشراق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر- بيروت، 2001.
- 4- الطاوي، عبد الرحيم. الإستشراق الروسي- مدخل إلى تاريخ الدراسات العربية والإسلامية في روسيا. المركز الثقافي العربي- بيروت، 2002.
- 5- جعيط، هشام. أوروبا والإسلام: صدام الثقافة والحداثة. دار الطليعة للطباعة والنشر- بيروت، 1995.
- 6- ابراهيم، عبد الله. المركزية الغربية: إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي- بيروت، 1997.
- 7- سمايلوفنتش، أحمد. فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي- القاهرة، 1998.
- 8- محمد، عبد الله يوسف سهر. مؤسسات الاستشراق والسياسة الغربية تجاه العرب والمسلمين، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية. العدد 57، أبو ظبي، 2001.
- 9- منصور، خيرى. الإستشراق والوعي السالب. المؤسسة العربية للدراسات والنشر- عمان، 2001.
- 10- سلسلة كتب الثقافة المقارنة. الإستشراق، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العدد الأول كانون الثاني 1987.